

قائمة مؤرخ وقيمته

27 يونيو 2008

د. عبادة ءحيلة

في مشفاه القريب من جامعته، يرقد إنسان جميل، اسمه رعوف عباس. تعرفت إلي رعوف عباس قبل سنوات وسنوات، حين التقيته في دولة خليجية، وكانت الصدفة وحدها سييلي إلي هذا اللقاء.

كنت في مكان بعيد عن المدينة، أتلمس وسيلة للعودة إليها، وكانت السيارات تمرق أمامي، دون أن يلتفت أحد إلي.. لكنه وحده توقف بسيارته، ليعود بي إلي المدينة قبل حلول الظلام. أتذكر تلك الأمسية من العام 1975 كأنها بنت أمس، لكنه كان قد نسيها، حين عاودت التعرف إليه في العام 1983.

هذه الحكاية مهمة كمدخل لحكايتي مع رعوف عباس، ومن خلالها يتكشف بعض من ملامح هذه الشخصية النبيلة، رعوف عباس هو الأستاذ القدوة.. قدوة لأنه جمع لخصلتين معاً، العالم والإنسان، وهما خصلتان عزيزتان في زماننا هذا، وفي مكاننا هذا.

خلال خمسين عاما من صلاتي بقسم التاريخ الذي أنتمي إليه، فإنني منذ أن دخلته للمرة الأولى في العام 1959 طالباً بالفرقة الأولى، تعرفت إلي أجيال من أساتذة هذا القسم، وبرغم أنني استفدت من بعض هؤلاء الأساتذة، وأخص بالذكر منهم عبداللطيف أحمد علي ومحمد أنيس، إلا أن الأستاذ الوحيد الذي أخذ بمجامع نفسي، وإن كان ينتمي إلي جيلي هو رعوف عباس.

الحديث عنه طويل طويل، والذكريات تتداعي الواحدة تلو الأخرى.

لن أتحدث عن رعوف عباس العالم فكتبه وأبحاثه وتلامذته يتحدثون عنه لكنني أتحدث عن رعوف عباس الإنسان.

هذا الرجل اتسع قلبه لحب الجميع، فكانت علاقته بهم وماتزال هي العطاء، ولا شيء غير العطاء.. وهذا مسلك غريب في زمان عز فيه العطاء، وصار الشعار الدارج عند الكثرة هو «أدني جهد ممكن بأكبر عائد ممكن».

العطاء في تقديري هو المفتاح لفهم شخصية رعوف عباس، وربما نستغرب ذلك من إنسان نشأ في أسرة فقيرة متواضعة الحال، تحدث عنها بصراحة، لا يباريه فيها أحد في سيرته «مشيناها خطي» وقد عهدنا من غيره.. الكثرة من غيره أن يتحول سلوكهم، حين تأتيهم الفرصة إلي مسالك أخرى ليس من بينها العطاء.

العطاء هو الذي جعل رعوف عباس عالماً، لأن العلم حنو للعطاء، بل إنه فرع منه لا ينفصل

عنه، والعالم - كما ينبغي أن يكون هذا العالم - لا ينتظر من علم مهما علا فيه مقابلاً، يعدل ما بذله في سبيله، هذا حال العلماء الراسخين في علمهم، وحال رءوف عباس الذي يتبوأ مكانة عالية بين المؤرخين العرب.

من هذا المنطق كون رءوف عباس في تخصصه مدرسة تتردد أصدائها في وطنه، وتمتد إلي وطنه العربي الكبير.

في هذا السياق فإن عطاء رءوف عباس لتلامذته لم يتوقف عند العلم في ذاته، بل إنه تعداه لأن يقوم بين هؤلاء التلامذة مقام الوالد، وهم بدورهم كانوا مایز الوون يلجأون إليه حين يههم أمر ما أو يدهمهم حدث ما فيكون هو نعم المرفاً والملاذ.

العطاء امتد عند رءوف عباس إلي الهم العام، فالعلم عنده لا ينفصل عن هذا الهم.. هو مصري يعتز بمصريته يدافع عنها، وعربي يعتز بعروبه، وأفاد بدراسته التاريخية في تحليل هذا الهم، وتلمس الوسائل المناسبة للتعامل معه، وعلي ذلك فهو مناهض جسور للصهيونية والحلول الاستسلامية، وهو مناهض جسور للإمبريالية والعولمة الأمريكية، وقبل ذلك وبعد ذلك هو مناهض جسور للأنظمة الاستبدادية الفاسدة، ومنها نظامنا الفاسد المستبد، ولا يخفي أن رءوف عباس ناشط من نشطاء المعارضة كما أنه ناشط من نشطاء حركة 9 مارس. هو إذن المثقف الشامل الملتزم، أو هو المثقف العضوي بتعبير جرامثر. يرقد رءوف عباس الآن في مشفاه، بعاني من مرض لن يطول بعونه تعالي ويخرج إلينا سالماً معافي، لننهل كما عودنا من عطائه، نتلقي منه الحب كأجمل ما يكون الحب، ونتلقي منه القدوة كأجمل ما تكون القدوة، ونتلقي منه الإنسانية كأجمل ما تكون الإنسانية. سوف ينتصر رءوف عباس علي مرضه، ويعود إلينا أوفر قوة، ونعود نحن إليه نستلهم بعضاً من هذه القوة.

رءوف عباس.. القامة والقيمة.. نحن نحبك، وندعوه تعالي أن يكافئنا علي هذا الحب بشفاء عاجل وعود سعيد، وليس ذلك عليه ببعيد.

http://www.elbadeel.net/index.php?option=com_content&task=view&id=23721&Itemid=41